انطباعات حول مدينة المسيلة من خلال الرحالة الأوربيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

د.عيسى بن قبي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة وصف عام لمدينة المسيلة– والتي أخضعت لهيمنة الاستعمار الفرنسي منذ 1841 - من حيث السكان والمباني وذلك من خلال كتابات لثلاث رحالة فرنسيين، زاروا المدينة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . والهدف من هذه الدراسة، هو الكشف عن أهم التغيرات السلبية والايجابية التي أحدثها التواجد الفرنسي بالمدينة، بعد 60 سنة من احتلالها و 30 سنة من تطبيق النظام المدني. وبعبارة أخرى ما هي حقيقة الرسالة الحضارية التي ادعت فرنسا نشرها وبررت من خلالها احتلال الجزائر؟

abstract

This study deals with a general description of the city of tear in terms of population and buildings - which had been subjected to the domination of the French colonization since 1841 - through the writings of three French traveler who visited the city at the end of the 19th century and early 20th century, the objective of this study is to reveal the most important positive and negative changes caused by the French presence in the city after 60 years of occupation and 30 years of application of the rules of civil society? In other words, what is the truth of the message of civilization which claimed France published from which justified the occupation of Algeria

الكلمات المفتاحية: المسيلة/ استعمار/ رحلات / الجزائر/ الرحالة

المقدمة:

لقد مر الاحتلال الفرنسي في الجزائر بمرحلتين أساسيتين فيما يتعلق بنظام الحكم الذي طبقه ، فمن 1830 إلى غاية 1870 تم تطبيق النظام العسكري و كان الهدف منه هو فرض السيطرة العسكرية على التراب الجزائري، و إخماد الثورات التي قامت في وجه الاحتلال. أما المرحلة الثانية فانطلقت ابتداء من سنة 1870 تاريخ فرض النظام المدني في الجزائر، والذي شمل المناطق الساحلية والداخلية، واستثنيت منه المناطق الصحراوية، وجاء بإلحاح من المستوطنين حتى يأخذوا بزمام الأمور، ويتمكنوا من السيطرة على دواليب الحكم في الجزائر، ولتسهل عليهم عملية استغلال خيراتها، وتسخير سكانها الأصليين لخدمتهم [1]، وهو الهدف الرئيسي للتواجد الفرنسي بالجزائر، ذلك أن السيطرة العسكرية لم تكن سوى مرحلة انتقالية لكي يصل الاستعمار إلى أهدافه الحقيقة، والمتمثلة في استغلال موارد البلاد الطبيعية والبشرية.

غير أن الجزائر بشساعتها لم تكن أرضا معروفة في عمقها بالنسبة للفرنسيين، خاصة المناطق الداخلية منها، رغم أن الاهتمام باحتلالها كان مند عهد نابليون بونابارت، غير أن نشاط الجوسسة التي وجهت إليها آنذاك، ركز على آليات السيطرة العسكرية عليها بالدرجة الأولى، بالرغم من اهتمامه بباقي جوانب الحياة الأخرى، ويبدوا ذلك واضحا من تقرير الجاسوس بوتان على سبيل المثال لا الحصر.[2]

ومع فرض النظام المدني انطلاقا من سنة 1870، تم تكثيف عمليات الاستكشاف لعمق الجزائر ومدنها الداخلية، خاصة بعد انحصار الثورات الشعبية، وانخفاض حدتها، وفي هذا الإطار قام الفرنسيون بتكثيف رحلاتهم الاستكشافية تحت أسماء وعناوين مختلفة، البعض منها أخذ طابعا رسميا، والبعض الأخر تم تحت حجة السياحة والرغبة في المغامرة، [3] إضافة إلى الرحلات التي أخذت الطابع الديني المتمثل في نشر المسيحية والتي لم تستثنى كأحد أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويكفي أن نعرف أن دو بورمون حمل معه مجموعة من القساوسة واستمرت العملية لاحقا، ولعل من أبرزها الرحلات التي قام بها الكردنال لافيجري في العديد من القرى والمداشر الجزائرية، كما شهدت هذه الفترة نشاط الجمعيات سواء العلمية منها أو الثقافية والتي كانت تشرف على العديد من الرحلات المنظمة وتقوم بدعمها، [4] والشيء الملاحظ أن العديد من الفرنسيين الذين قاموا برحلات داخل الجزائر لم يكتفو بكتابة تقارير عن رحلاتهم، بل دونوها في كتب تضمنت مختلف الملاحظات التي لفتت انتباههم وحظيت باهتمامهم، كما تضمنت معلومات تفصيلية عن الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي بالنسبة للجزائريين، وهندسة مدنهم وثقافتهم ..

وسرعان ما تحولت هذه الكتابات إلى مراجع للسلطات الفرنسية، تعرفت من خلالها بشكل مفصل على حياة الجزائريين وطرق عيشهم، مما يمكنها في التحكم فيهم أكثر ويسهل لها عملية إدماجهم في منظومتها الاستعمارية، و من خلالها رسمت إستراتجية حكمها للبلاد. كما كانت هذه الكتابات وسيلة لتعريف المستوطنين بمختلف مناطق الجزائر، وتعينهم في تحديد أماكن استقرارهم. [5] ومن المدن الداخلية التي حظيت باهتمام الرحالة الفرنسيين وشهدت عدة زيارات من طرفهم في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين نجد مدينة المسيلة.

فكيف كانت نظرتهم لهذه المدينة؟، وما هي أهم الأشياء التي لفتت انتباهه وقاموا بتدوينها؟ ومن خلال ما تم رصده في هذه الرحلات، ما هي التغيرات السلبية والايجابية التي أحدثها التواجد الفرنسي بها بعد 60 سنة من احتلالها و 30 سنة من تطبيق النظام المدني؟ وبعبارة أخرى ما هي حقيقة الرسالة الحضارية التي ادعت فرنسا نشرها وبررت من خلالها احتلال الجزائر؟. ولدراسة هذا الموضوع تناولنا ثلاث رحلات كنماذج، تمت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بين سنتي 1897و 1902 إلى مدينة المسيلة وهي كالتالي:

رحلة شارل دو قالون Charles De Galland [6] للمسيلة، . قام بزيارتها في نهاية القرن التاسع عشر، وبالذات في سنة 1897 أي حوالي 70 سنة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر و60 سنة منذ سيطرت الفرنسيين على مدينة المسيلة.[7] وتمت هذه الرحلة بتوجيه وتدعيم نادي متسلق جبال الألب فرع .الأطلس بالجزائر، وقد انطلق في رحلته من مدينة الجزائر إلى غاية مدينة البويرة بواسطة القطار، ثم حملتهم قافلة برية إلى مدينة سور الغزلان، ومنها توجها إلى مدينة سيدي عيسى، وانطلاقا منها بدأت الرحلة الفعلية الاستكشافية، ليمر بعد ذلك إلى مدينة عين الحجل ثم بوسعادة، وتوغل جنوبا باتجاه زاوية الهامل ليعرج في النهاية باتجاه الشمال نحو مدينة المسيلة، و بالرغم من أن زيارته عموما وزيارته لمدينة المسيلة بالخصوص لم تدم طويلا، إلا أنها كانت مليئة بالمعلومات التي استقاها، والملاحظات التي دونها حول المنطقة وسكانها وقد ضمنها في كتاب له بعنوان "جولة في بوسعادة والمسيلة." Excursion a Boussaâda et Msila وذكر في مقدمته أن هذه الجولة تمت بدعم من نادي المتسلقين لجبال الألب عن طريق فرع الأطلس التابع لها.[8]

كما زار المنطقة الصحفي بول إيدل Paul Eudel[9] خلال رحلة قادته من الجزائر إلى مدينة برج بوعريريج ثم المسيلة قبل أن يمر إلى مدينة بوسعادة، وذلك في شهر أفريل من سنة 1899 ودونها في كتابه "من الجزائر إلى بوسعادة" D'Alger à Bou-Saada[10]

وهناك الرحلة التي قامت بها الصحفية الفرنسية ذات الأصول الروسية إيزابيل إيبرهارت، [11] والتي قامت بعدت رحلات استكشافية للجزائر في إطار نشاطها الصحفي، ومن ضمنها رحلتها التي قامت بها في شهر جويلية من سنة 1902 انطلاقا من الجزائر نحو مدينة بوسعادة، مرورا بكل من مدينة برج بوعريريج ومدينة المسيلة 1902، وتم تدونها في الكتاب الذي ضم مجموعة من أعمالها تحت عنوان "ملاحظات الطريق" NOTES DE ROUTE. [12] وبالرغم من أنها نفت عن نشاطها الصحفي أية صفة سياسية، إلا أنها في نفس الوقت لم تخف عملها الدعائي الموجه للجزائريين، والذي تضمن محاولة إقناعهم بأن الخضوع للهيمنة الفرنسية أفضل لهم من الخضوع للهيمنة التركية أو هيمنة أخرى. [13] مما يثير الشكوك حول شخصيتها، والأهداف الخفية وراء نشاطها الصحفي المعلن .

لمحة حول تاريخ المسيلة:

في مقدمة كتابه حول الرحلة وقبل أن يخوض في تفاصيلها، أعطى De Galland دوقالون لمحة تاريخية عن مدينة المسيلة في الماضي عبر مختلف العصور، مع التركيز على الفترة الإسلامية، مذكرا بالأساطير المتداولة حول نشأتها، وامتد في سرده ليصل إلى الفترة التي سبقت الدخول الفرنسي للمدينة، ثم

تطرق إلى المراحل التي مرت بها المدينة أثناء التواجد الفرنسي، وخصص في كتابته حيزا مهما للأحداث التي وقعت بالمدينة أثناء ثورة المقراني، والمساهمة الفعالة للسكان فيها، والهزائم التي ألحقت بالجيش الفرنسي آنذاك، قبل أن يخلص إلى نهاية الانتفاضة، وكيف تمكن الجيش الفرنسي من استرجاع المدينة تحت سيطرته، والعقوبات الجماعية التي ألحقت بسكانها الذين وقفوا إلى جانب المقراني، حيث هدمت أحياء بكاملها كحي " الكوش"، وصودرت أراضيهم، قبل أن تقوم السلطات الفرنسية بإعادة بيعها لهم، لتبدأ بعد ذلك مرحلة استقرار المستوطنين الفرنسيين، حيثا تم بناء حي بالمدينة مخصص لهم على الأراضي التي تمت مصادرتها من مالكيها الأصليين من سكان المدينة عقب ثورة المقراني[14].

ورغم أن الرحلة استكشافية، إلا انه برر تعرضه للجانب التاريخي كونه ضروري لمعرفة مراحل استقرار السكان وظروف تشكيل وحدتهم، وأردف يقول أنه لا يمكن معرفة واقع السكان دون الاطلاع على ماضيهم.[15]

ونفس المنحى نهجه الصحفي بول إيدل Paul Eudel ، وركز بالخصوص على قدوم الهلاليين، فوصفهم بالغزاة المحتلين، كما أعطى وصفا بشعا لمحلة لتواجد العثمانيين بالمدينة، حيث يذكر أنهم ارتكبوا مجازر شنيعة هناك، فقتلوا الرجال وسبوا النساء دون أن يذكر مصدر معلوماته.[16] وهذا الوصف هو نفسه الذي دأبت المدرسة الكولونيالية الفرنسية على تكريسه حتى ترسخ الفكرة القائلة بأن الوجود العثماني بالجزائر كان احتلال دمويا، وأن قدوم الفرنسيون إنما كان هدفه تخليص السكان من هذا الاحتلال، كما ورد في رسالة دوبرمون إلى أهالي الجزائر قبيل القيام بغزوها.[17]

ثم تعرض مرحلة الوجود الفرنسي، حيث يذكر أن المدينة أخضعت على يد القائد الفرنسي نقريي Negrier سنة 1941 بعد مقاومة عنيدة من سكان المدينة، خاصة وأن المنطقة كانت تابعة لنفوذ الأمير عبد القادر آنذاك[18]

أما إيزابيل إيبرهارت Isabelle Eberhardt فقد شرعت مباشرة في وصف المشاهد التي صادفتها بالمدينة، دون التعرض الى ماضيها التاريخي، فالمسيلة لم تكن هي المقصد في رحلتها بل كانت إحدى النقاط التي مرت بها.

ثم واصل دو قالون de Galland استعراضه لتاريخ المدينة، حيث تطرق للتطور الإداري الذي مرت به المدينة في ظل السلطة الفرنسية، وكيف تحولت إلى بلدية مختلطة، فبعد أن ألحقت ببلدية برج بوعريريج، وذلك منذ سنة 1874 تحولت إلى بلدية مختلطة بناء على المرسوم الصادر من الوالي العام للجزائر في سبتمبر 1884 ، و يبدو من خلال ما كتب أن الاستقرار الفعلي للمستوطنين الفرنسيين بها تم عقب ثورة المقراني، بعد أن تحولت إلى النظام المدني.[19]

2. مخطط المدينة

كتب دو قالون De Galland بأن مدينة المسيلة تتميز بالتنوع والروعة والامتداد، مع وجود واحة نخيل رائعة قد تنافس واحة بوسعادة [20]، وأضاف بول ايدل Paul-Eudel بأنها أكبر من مدينة برج

بوعريريج والتي يمكن أن نجوبها في ربع ساعة، فالمسيلة تتطلب وقت أطول لزيارتها. [21] وقد وصفتها إيزابيل Elisabeth بأنها مدينة جميلة تشبه القصر الصحراوي. [22] ويضيف بول ايدل Paul-Eudel بأنها تمتد على ضفاف وادي القصب، الذي ينبع من جبال المعاضيد ويجري وسط المدينة، ويربط بين ضفتيه جسر حديدي بعرض 4 أمتار، فمن الضفة اليمنى هناك الحي الأوروبي الذي يضم تجمع سكاني لـ 120 فرنسي وحوالي 100 يهودي مجنس، وهو يقع بين حيين أهليين هما "الكوش" و"العرقوب"، ومن جهة الضفة اليسرى نجد اربعة تجمعات سكانية تمثل الحي العربي، ويقطن بها حوالي 4000 ساكن، وهي "الشتاوة" و"الجعافرة" و"خربة التليس" و"راس الحارة"[23] وبالتالي فالمدينة تتشكل من حي أوربي إلى جانب أحياء عربية .

أ -الحي الأوروبي:

الحي الأوروبي كما جاء في وصف إيزابيل إيبرهارت، تميزه البنايات الحديثة والشوارع الواسعة التي تخلو من الزوايا المظلمة، وقد سخرت كل وسائل الراحة به وفقا لذوق الأوروبي. (أو الرومي كما وصفته)[24] وأضاف دو قالون De Galland بأن الحي الأوربي توجد به المدرسة ومقر الحاكم ومنزل الطبيب وثلاث فنادق، ومن ضمنها الفندق الذي أقام فيه فيذكر أن الغرفة التي منحت له كانت جد مريحة، وقدمت له أطباق متنوعة، وجاء هذا الوصف عكس ما ذكره بول ايدل Paul-Eudel حيث وصف الفندق الذي نزل به بأنه يحتوي على ممر طويل، تتوزع به غرف بسيطة خالية من كل تحسينات، وتحتوي على أسرة نحاسية، مع غياب كلي للغاز أو الكهرباء.(25) ثم يواصل دو قالون وصفه للمدينة فيتكلم عن وجود طاحونة الحبوب التي هي ملك لأحد المعمرين، كما توجد حدائق بحي المعمرين، ولعل أبرزها هي الحديقة التابعة للحاكم الإداري للمدينة، حيث تحتوي على أشجار مثمرة ومتنوعة، إضافة إلى الورود، وتربى بها بعض الحيوانات للتسلية والزينة كالغزلان.(26) ويبدو أن هذه الحديقة قد استهوت كل من زار المدينة من الأوربيين آنذاك، فبول ايدل Paul-Eudel أيضا عبر عن إعجابه الشديد بها حين زار الحاكم العام للمدينة.(27)

وهناك إلى جانب الحي الأوروبي نجد الحي اليهودي الذي يلتصق به، حيث وصفه بول إيدل بأنه يتميز بالأوساخ المتراكمة، والغياب الكلي للماء في المجاري، والأولاد هناك يتبولون في كل الأماكن، كما أن الذباب يتراكم على أجسادهم دون أن يعملو على إبعاده، أما النساء هناك فهن يستعملن اليمني؛ وهو رداء يلفونه على رؤوسهم ويخفي شعر، ويذكر أنهن يفتقدن لكل جاذبية كما جاء في وصفه لهن.[28]

ب -الأحياء العربية

الأحياء العربية ويقصد بها الأحياء التي يقطنها الأهالي، وهم السكان الأصليون للمدينة، فيذكر دو قالون بأنها تمتد على ضفاف واد القصب، وما يميزها هو امتداد البساتين بمحاذاة الوادي، والتي كانت تزخر بالنخيل والأشجار المثمرة، ويربط بينها الجسر الذي أقامته السلطات الفرنسية ونال إعجاب الرجل و أشاد بانجازه.[29]

وفيما يتعلق بمخطط هذه الأحياء والمباني المنتشر هناك فقد وصفها بما يلي" أما بالنسبة للحي العربي -كما سماه الكاتب - فشوارعه ضيقة ووسخة مثل تلك التي شاهدها بمدينة بوسعادة، والمنازل

تحتوي على شرفات بفتحات صغيرة، بحيث يمكن أن يرون منها الزائر دون أن يراهم، وفي الغالب تكون هناك سلالم خارجية وتؤدي إلى غرفة في أعلى المنزل مفتوحة على كل الجهات.ووضعية المنازل من الداخل لا تختلف عنها في الخارج من حيث البساطة [30]. وذكرت أيضا إيزابيل إيبرهارت بأن المدينة القديمة مزدحمة بشكل فوضوي من خلال مساكنها المشيدة بالطوب الأسود، و شوارعها بدون اسم وغير مستقيمة ولا معبدة وعشوائية رغم تشابهها.[31]

وفيما يتعلق بأماكن العبادة الخاصة بالأهالي والمتمثلة في المساجد فتم إحصاء 17 مسجدا بالبلدة من قبل بول إيدل - وهو نفس العدد الذي ذكره فيرو قبل 30 سنة حين زار المدينة – [32]، وتم التركيز على ثلاث أهم مساجد كبيرة، فإلى جانب مسجد "سيدي عمر بن عبيد" ، ومسجد "بو تليس" الذين أعيد بناءهم بعد الزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1885،هناك مسجد "سيدي بوجملين "وهو الأهم بالمدينة على الإطلاق كونه يحتوي على زاوية للتعليم الديني وله هالة كبير لدى أهالي البلدة[33]

التعريف بالسكان :

لقد خص الرحالة الأوربيون السكان الأصليين للبلدة باهتمام كبير، مقابل إغفال كلي للحديث عن المستوطنين قدموا من أوروبا و استوطنوا بالمدينة، ولا غرابة في ذلك، كون الهدف من هذه الرحلات هو التعرف على واقع السكان الأصليين للمدينة، حتى تسهل عملية السيطرة عليهم، ليس فقط بالطرق العسكرية التي كانت جد مكلفة، بل بالطرق السلمية فهي أقل تكلفة وأكثر فعالية، وفي هذا الإطار ذكر دو قالون بأن السكان بها ينقسمون إلى بدو وحضر.

بالنسبة للبدو الذين تشكلوا من خلال اندماج السكان الأصليين مع الغزاة العرب – كما وصفهم الكاتب - فيمارسون مهنة الزراعة إلى جانب تربية المواشي، التي تدفعهم إلى الانتقال صيفا باتجاه الشمال نحو مدن سطيف وقسنطينة بحثا عن الكلأ والمناخ المعتدل.

وذكر بأنه من الناحية الثقافية والاجتماعية هناك انتشار للأمية مع وجود عدد محدود المتعلمين، وذكر بأنهم يتصفون بالتعصب الديني، وشديدي الولاء لشيوخ الطرقية، ويتبعون المذهب المالكي. غير أن الأراضي العرش التي يملكونها لا يورثون الأنثى والتي تكتفي بأخذ المنقولات فقط.

أما **الحضر** ويقصد بهم سكان المدينة ، فيذكر أن منازلهم كمثيلتها في بوسعادة، مبنية من الطوب أو الأجر المجفف، والسقف بالأخشاب، بينما تقل المنازل المبنية بالحجارة، ولا يملكون الأغنام، وفي المقابل يقومون بتربية الماعز والحمير والبغال و البقر، هذا لأن البغال يستعملونها في التنقل والماعز والبقر للتزود بالحليب.[34]

النشاط الاقتصادي للسكان:

وفيما يتعلق بالنشاط الاقتصادي لأهل المدينة، دو قالون يذكر بأنهم يشتغلون بالفلاحة، وأساسا بالبستنة، حيث يملكون حدائق تزخر بأشجار المشمش والتين والخوخ، ويعتمدون في ريها على حواجز مائية

مبنية بطرق بسيطة بالواد الذي يعبر المدينة، ويحدث أن تنهار في حالة وجود فيضانات فيسارعون إلى إصلاحها، ولاحظ أن الأراضي هي ملك لهم والمرأة ترث الثمن، [35] ويبدو أن اطلاعه كان محدودا في هذا المجال ذلك أن الإرث كان يقضى فيه وفقا لقواعد الشريعة الإسلامية، والثمن هو نصيب المرأة من ميراث زوجها وليس قاعدة عامة.

أما ما تعلق بالنشاط الصناعي ذو الطابع الحرفي، الممارس من طرف سكان المدينة، فلاحظ وجود عدة صناعات والبعض منها من له طابعا فنيا، فيذكر صناعة المحاريث الخشبية وكذلك صناعة الأواني المنزلة من الخشب كالملاعق و الصحون..هذا إلى جانب صناعة الأواني المنزلية من الفخار، وهناك الصناعات النسيجية كالبرنوص والحايك والزرابي... والتي تنجز من طرف النساء، غير أن الحرفة الأكثر شهرة، تتمثل في الصناعات الجلدية المعروفة بالفيلالي، فهناك محلات صغير عبارة عن ورشات لممارسة حرفة الصناعة الجلدية المطرز بعضها بخيوط الذهب والفظة، وهي حرفة اشتهرت بها المدينة وذاع صيتها في المناطق المجاورة، وتتنوع المصنوعات بين الأحذية و سروج الخيل. ومختلف مصنوعا الزينة المتعلقة بركوب الخيل،[36] ونفس المعلومة ذكرها شارل فيرو من قبل.[37]

أما الأنشطة التجارية فيذكر أنها تتم بالخصوص بالأسواق المحلية التي تقام بالمدينة في ثلاث أيام متفرقة من الأسبوع. أما الأنشطة التجارية اليومية داخل المدينة، فتتواجد بوسط البلدة المحلات المتمثلة في الجزارين و بيع المواد الغذائية .ومحلات بيع الأواني المنزلية ذات الطابع التقليدي.[38]

ومن بين الأنشطة التي كانت تمارس أيضا داخل المدينة نجد الطب الشعبي، وفي هذا الإطار يذكر دو قالون أنه لفت انتباهه رجل يرتدي لباسا تقليديا متميز يمارس الشعوذة، حيث يعرض نفسه كطبيب عيون في الهواء الطلق، ويستعمل سكينا لمعاينة العيون المريضة دون مراعاة شروط النظافة، وله قوة إقناع حيث يلقى إقبالا من طرف الأهالي للتداوي.[39]

كما كانت تنتشر بالمدينة العديد من المقاهي الشعبية و التي يقصدها خادة سكان البلدة. وهناك ظاهرة ركز عليها الرحالة الأوربيون الذين زاروا المدينة، والمتمثلة في وجود ماخور بالمدينة، وهذا ما يتناقض مع طابعها الإسلامي المحافظ، حيث تطرق لهذه هذه الظاهرة دو قالون وتحدث عنها بإسهاب حين زار مدينة بوسعادة، وتحدث عن وجودها أيضا بمدينة المسيلة في مبنى صغير وجد بائس.[40] ونفس الظاهرة تطرق لها بول إيدل بإسهاب وذكر بأن الماخور يقع في مكان معزول[41]، كما لم تستث الحديث عنها الصحفية إيزابيل إيبرهارت مستفسرة عن هذا التناقض الذي يجعل من المدينة تنام بين التصوف والدعارة [42]. وقد تحتاج هذه الظاهرة الغريبة إلى دراسة حول ظروف وجودها داخل مجتمع محافظ، وسبب التركيز عليها من طرف الرحالة الأوربيون.

الخاتمة:

ومن خلال هذه الرحلات يمكننا أن نستشف الملاحظات التالية:

1. . كان التركيز على السكان المحليين؛ أي الأهالي أو السكان العرب كما كان يلقبهم لتمييزهم عن الأوربيين، وهذا طبيعي لان الهدف لم يكن دراسة سكان المدينة، بل التركيز على معرفة الأهالي وهم المستهدفين بالاكتشاف.
2. . تم التطرق خلال هذه الرحلات لمختلف جوانب الحياة بالنسبة للجزائريين، من جانب اقتصادي إلى الجانب الاجتماعي، لكن الإهتمام بالجاني الثقافي كان جد محدودا، وقد يكون سبب ذلك هو أن المثقفين آنذاك كانوا من المعربين، ولم ينتشر التعليم بالفرنسية بعد ،حتى وان وجدت مدرسة ففي هذه الفترة ما زال التحفظ سيد الموقف من الجهتين فيما يتعلق بالتحاق أبناء الأهالي بالمدارس الفرنسية ، فالسكان المحليين يتخوفون من الغزو الثقافي وعملية التنصير التي قد تقوم بها هذه المدارس، والمستوطنين من جهتهم يتخوفون من فكرة تعليم الأهالي التي قد تجعلهم يتساوون معهم في الحقوق، وهذا ما قد يحول دون استغلالهم لاحقا.
3. ومن خلال التطرق للحياة اليومية للسكان بالمدينة يتضح غياب أي اندماج أو اختلاط ولو محدود بين الأهالي والمستوطنين، خاصة وأن الفترة المدروسة لم تكن ببعيدة من الناحية الزمنية عن ثورة المقراني، والتي عبر من خلالها سكان البلدة عن رفضهم للوجود الفرنسي وهذا بالرغم من أن المدينة كانت مشمولة بالنظام المدني آنذاك .
4. أما فيما يتعلق بالنشاط الصناعي فيلاحظ غياب شبه تام للصناعات الحديثة بالمدينة في تلك الفترة، ويبدوا أن نشاط المعمرين الذين استقروا بها اقتصر على الفلاحة، فباستثناء الطاحونة التي كان يملكها احد المعمرين وهي مرتبطة بالنشاط الفلاحي، لا وجود لأي ورشات صناعية أخرى.باستثناء الورشات التقليدية التي كان يملكها الأهالي.
5. . الملاحظ أيضا أن اليهود كعادتهم ورغم تمتعهم بالجنسية الفرنسية بفعل قانون كريميو، إلا أن ذلك لم يدفعهم إلى الاندماج كليا مع باقي المعمرين الفرنسيين، وبقوا يسكنون في تجمع سكاني خاص بهم لكنه بمحاذاة الحي الأوربي، ولعل السبب وراء ذلك هو الرغبة في المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم ورفض الذوبان داخل المجتمعات الأخرى.
6. وعموما فمن خلال ما تم تدوينه في هذه الرحلات ، تبرز حقيقة مهمة وهي أن الاستعمار الفرنسي لم يجلب سوى الخراب والدمار للمدينة بسكانها، ففرنسا التي ادعت أنها جاء إلى الجزائر من اجل تحرير سكانها من الاحتلال التركي، و لأجل نقل التقدم والرقي، تخليصهم من حالة التخلف، نجدها بعد ستين سنة من تواجدها بهذه المدينة، قامت بتخريب حي بكامله وهو حي "الكوش" كما ذكر دو قالون، بسبب استبسال سكانه في المقاومة أثناء مشاركتهم في "ثورة المقراني"، كما كان من نتائج الوجود الفرنسي هو تعرض سكان المدينة للعقوبات الجماعية بسب هذه المشاركة في هذه الثورة، فصودرت أراضيهم واضطروا بعد ذلك إلى إعادة شرائها من السلطات الفرنسية وجزء منها سلم للمعمرين وأقيم عليها حي خاص بهم.
7. ومن جهة أخرى، لم يطرأ أي تغيير بالنسبة للأحياء التي كان يسكنها الأهالي، حتى عدد المساجد بقي نفسه منذ زيارة شارل فيرو للمدينة سنة 1872 إلى غاية 1902 حيث بقي في حدود 17 مسجدا، بينما الحي الذي خصص للمعمرين تم بناء بشكل عصري ووفقا لنمط وحاجيات الأوربيين، والشيء الوحيد الذي تمت الإشادة به في هذا المجال هو الجسر الذي شيد للربط بين شطري المدينة، ولم يكن ذلك بالحدث الغريب، فقد دأبت السلطات الفرنسية دائما على

الاهتمام بمد الطرق، وبناء الجسور في المستعمرة ليس خدمة للأهالي وإنما لتسهيل عملية تنقل جيوشها لإحكام السيطرة على البلاد، والتمكن من استغلال خيراتها.

8. لقد ساهمت كتابات هؤلاء الرحالة في التعريف بالمناطق الداخلية للجزائر، وبالتالي توفير المعلومات الكافية للمستوطنين الأوربيين، الذين بدا عددهم يتزايد بعد إقرار النظام المدني في الجزائر، وتشجيعهم للتوغل أكثر في المناطق الداخلية والاستقرار بها، وبالتالي فان تدوين هذه الرحلات في تلك الفترة وفر خدمة كبير للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر سواء بقصد أو بغير قصد.

الهوامش:

1. يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2009، ص243
2. عمار بحوش التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولعاية 1962 دار الغرب الاسلامي ط1 – 1997 – ص 84
3. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900 ،دار الغرب الاسلامي بيروت 2000، ط1، ص 540-541
4. سعدي مزيان، النشاط التبشيري للكاردينال لافيجري في الجزائر، وزارة الثقافة الجزائر2008، ط1، ص209
5. L.Charle Férrand, histoire de la province de Constantine, Bastide libraire place de la république, Alger 1872, P3
6. ولد شارل دو قالون charles de Galland بمدينة الدويرة بالجزائر في 17 ديسمبر 1957، وتلقى تعليمه الأولي بالجزائر العاصمة، ثم التحق بصفوف الجيش الفرنسي سنة 1870 إلى غاية 1872 تاريخ التحاقه بثانوية إكس بفرنسا، ليواصل تعليمه العالي في تخصص الأدب الفرنسي. وفي 1874 رجع الى الجزائر ليشتغل في ميدان التعليم كمدرس ثم مدير لعدة ثانويات، وبعد تقاعده المبكر سنة 1807 تفرغ للنشاط السياسي، حيث انتخب كرئيس لبلدية الجزائر لأكثر من عهدة من 1910 إلى غاية 1919 تاريخ استقالته من المنصب، كان مولعا بالكتابة الأدبية والرحلات التي دونها في مؤلفاته ومنها كتاب "من الجزائر إلى بوسعادة" والتي وصف فيها زيارته لهذه الأخيرة، توفي في 23 مارس 1923.ينظر:

Charles De GALLAND, Alger et l'Algérie, IMPRIMERIE ALGÉRIENNE, 2, Rue Bourlon Alger, 1924. P3

7. كمال بيرم، المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي بمنطقة الحضنة، وزارة الثقافة، الجزائر2013، ص43
8. Charles De Gland, excursion a Bou-Saada et Msila, Éd Paul Ollondorff, Paris 1899, p. 3
9. بول إيدل (Paul Eudel) صحفي فرنسي، ولد في 1837/10/23 بمدينة كروتوي (Crotoy) شمال فرنسا، درس تعليمه الثانوي بمدينة نانت Nantes ليندمج بعد ذلك في الحياة العملية، حيث اشتغل هناك بغرفة كبيرة للتجارة، ثم اقتحم عالم السياسة حيث تولى رئاسة بلدية نانت لمدة سنتين ، وعقب ذلك انتقل الى باريس وتخصص في الدراسات الفنية والأدبية، حيث اهتم بجمع التحف ودراستها من خلال العديد من الرحلات التي كان يقوم بها خاصة بالمستعمرات الفرنسية آنذاك ومنها الجزائر، كما عمل على تدوين خلاصة نشاطه بواسطة المقالات الصحفية التي كان ينشرها في العديد من الصحف الفرنسية، مثل كوريي دو نانت (Courrier de Nantes) فار دو لوار (Phare de Loire) تون (Temps) . توفي في 2011/11/18 تاركا وراءه العديد من المؤلفات الأدبية ، خاصة تلك التي أرخ بها لرحلاته ومنها كتاب " من الجزائر إلى بوسعادة" والتي ضمنه زيارته إلى مدينة المسيلة.ينظر:

Vapereau, Gustave, dictionnaire universel des contemporains, L.Hachette, Paris 1883 , vol.1, p.347,**www.artlyriquefr.fr**/personnages/Eudel.html.18/03/2018

10. Paul-Eudel,. **D'Alger à Bou- Saada**, Ed, Augustin Challamkl, Rue Jacob, 17, PARIS 1904, p p24

11. إيزابيل آبربرهارد Isabelle Eberhardt صحفية من أصول روسية ولدت سنة بجنيف سنة 1877 أين تلقت تعليمها الأولي، قبل أن تواصل تعليمها في ميدان الطب، غير أن شغفها المبكر بالأدب والصحافة دفعها إلى التخلي عن مسارها الدراسي في ميدان الطب واهتمت بتعلم اللغات، فكانت تجيد الروسية والفرنسية والألمانية والايطالية واللاتينية ، كما تمكنت أيضا من تعلم اللغة العربية وأصبحت تتقن التخاطب بها. استهواها السفر إلى بلدان المغرب عموما وجنوب الجزائر بشكل خاص، حيث انتقلت إلى مدينة عنابة رفقة والدتها سنة 1897 وكانت تلك أول زيارة لها إلى الجزائر، ثم تعددت زياراتها لاحقا، وكانت تجوب مختلف المناطق الصحراوية على فرس بلباس فارس عربي، وباسم مستعار هو "محمود سعدي" محاولة اكتشاف أسرارها والتقرب من سكانها، للتعرف أكثر عن عاداتهم وتقاليدهم .و تعرفت خلال رحلاتها هذه على مجند جزائري في الجيش الفرنسي يدعى سليمان أهني حيث استقرت معه بالجزائر بعد ان تزوجت منه، ويقال أنها اعتنقت الدين الإسلامي، بينما تذكر هي عن نفسها انها ولدت مسلمة من أب مسلم. وكانت تدون رحلاتها من خلال مقلات صحفية نشرتها في العديد من الصحف التي كانت تصدر بالجزائر ومنها غوفي بلونش Revus Blanche لاديباش دالجي la dépeche وصحيفة اخبار Akbar التي كانت تصدر باللغة الفرنسية. كما دونت رحلاتها في العديد من الكتب البعض نشر في حياتها والبعض الأخر جمع ونشر بعد وفاتها. ومنها كتاب Note de route" الذي ضمنته زيارتها لمدينة المسيلة. توفية سنة 1904 اثر غرقها في الفيضانات التي اجتاحت مدينة عين الصفراء ،أين كانت تقيم هي وزوجها ودفنت هناك تبعا لوصيتها. للتفاصيل ينظر:

Isabelle Eberhardt et Victor Barrucand, Dans l'ombre chaude de l'Islam Ed : E. Fasquelle (Paris) 1921 , P.317-363, Eberhardt, Isabelle Notes de route : Maroc, Algérie, Tunisie / publiées, avec une préface, par Victor Barrucand , Ed : E. Fasquelle (Paris) 1908 , P 01/14.

12. Isabelle Eberhardt , Notes de route , Ed, Eugène Fasquelle ,Paris 1908,P 66.
13. Isabelle Eberhardt et Victor Barrucand, Dans l'ombre chaude de l'Islam, E. Fasquelle (Paris) 1921, P319.
14 . De Galland , excursion a Bou-Saada et M'sila, p81,83.
15 . De Galland , Excursion a Bou-Saada et M'sila , p9
16. Eudel Paul ;op.cit. p 48
17. عبد الحميد زوزو، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830 - 1900**، موفم للنشر، الجزائر 2010، ص .26

18 .Eudel Paul , Op.cit. p 48
19 .De Galand , Excursion a Bou-Saada et M'sila, P85
20. De Galland, ibid. P 83,
21.Eudel Paul, Op.cit. p 49
22. Isabelle Eberhardt , Notes de route, P71.
23 . Eudel Paul, Op.cit., 49
24 .Isabelle Eberhardt , Notes de route, P276
25 . Eudel Paul, Op.cit., 50.
26. De Gallan, Excursion a Bou-Saada et M'sila, Op.cit. P 86
27 .Eudel Paul, Op.cit. p 51
28 .Eudel Paul, Ibid. p 52

29. De Galland , Excursion a Bou-Saada et M’sila, P89.
30 . De Gallan , Ibid. P90
31. Isabelle Eberhardt , Notes de route, P71
32 .L.Charle Ferrand, P326
33 .Eudel Paul p 61
34. De Galland , Excursion a Bou-Saada et M’sila P84.
35 .De Galland, Ibid. p 84..
36. De Galland, Op.cit. P 86.
37 .L.Charle Ferrand, Op.cit., P329
38 . Eudel Paul, Op.cit P 52
39 .De Galland , Excursion a Bou-Saada et M’sila, P86
40. De Galland, ibid. P89
41 .Eudel Paul Op.cit, P 55
42 .Isabelle Eberhardt , Notes de route, P276